دماء الوحدة
بين الجزائر وتونس
نسمات الأدب
الجزائرية سلاطنية رحمة
التونسية بن تبرنور
تصميم همس الجنة

دماء الوحدة بين الجزائر وتونس

سلاطنية رحمة
بن تبرنور

تستعرض لكم دار نسمات الأدب للنشر

الإلكتروني بعزيمة وإبداع جديد

الكتاب : دماء الوحدة بين الجزائر وتونس

المؤلف: سلاطنية رحمة/ بن تبرنور

غلاف الكتاب: همس الجنة

موك اب الكتاب: جيهان سمير

تنسيق داخلي: سمر حمدان

إدارة الدار: رزان محمد كليب

مع نسمات الأدب، أفكارك تنبض بالحياة!

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

"ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياءا عند ربهم يرزقون"

جاء هذا الكتاب كفكرة صغيرة تمجيدا لشهداء احداث ساقية سيدي يوسف رحمهم الله

اهداء

إلى من كانوا بجانبي في لحظات ضعفي،

إلى كل من مدّ لي يد العون، وتواجد في لحظات احتجت فيها إلى قوة لم أكن أملكها، أقول لكم: أنتم نورٌ في عتمة الطريق. أنتم من جعلتم كل خطوة لها معنى، وكل لحظة لها قيمة. أهدِيكم هذا الكتاب بكل فصوله، لأن وجودكم كان الفصل الأجمل فيه.

إلى من ساندني:

أنتم الذين جعلتم من الأحلام واقعاً، ومن الحروف حياة. شكرًا لأنكم كنتُم هناك في كل مرة سقطت فيها، لرفعتموني مرة أخرى. أهدِيه لكم بكل حب وامتنان.

إلى من حاولوا إسقاطي:

أشـــكركم أنكـــم كشـــفتم لـــي قـــوتي الحقيقيـــة، وأنكـــم علمتمـــوني كيـــف أكـــون أكثـــر صـــلابة، كيـــف أرتفـــع حتـــى عنـــدما تظنـــون أننـــي ســـأقع. كـــان وجـــودكم فـــي حيـــاتي دافعًـــا لـــي للنمـــو والتطـــور، فـــإلى كـــل مـــن حـــاول إســـقاطي، أقـــول: "أهـــدِّيكم هـــذا الكتـــاب، لأنه يروي قصة فوزي بعد كل سقوط."

إلـــى الجميـــع، أنـــتم جـــزء مـــن رحلتـــي، وكـــل صفحة في هذا الكتاب هي جزء منكم.

المقدمة

في قلب تاريخ الجزائر وتونس، ومنطقة سَاقية سيدي يوسف التي تحتضن بين ثناياها ذكريات من العز والفخر، تتجلى واحدة من أروع صور التضامن العربي.

في تلك اللحظة العصيبة، حيث كانت نيران الاستعمار الفرنسي تلتهم الأرض وتدمي القلوب، برزت سَاقية سيدي يوسف كرمزٍ للصمود والمقاومة.

كان يوم 8 فبراير 1958 يوماً فارقاً في ذاكرة الشعبين التونسي والجزائري.

ففي تلك اللحظات العصيبة، كان التضامن بين الشعبين هو السلاح الأقوى في مواجهة آلة الحرب الفرنسية التي لم تفرق بين الحدود أو السيادة.

سَـــاقية ســـيدي يوســـف، القريـــة التـــي كانـــت آمنـــة ومســـالمة، أصـــبحت نقطـــة التقـــاء لثـــوار الجزائـــر فـــي إطـــار دعـــم متبـــادل مـــع الأشقاء في تونس.

كانـــت الأجـــواء مشـــحونة بـــالتوتر، والشـــعب فـــي سَـــاقية ســـيدي يوســـف يعـــي تمامـــاً أنـــه علـــى مرمـــى حجـــر مـــن تهديـــدات الاســـتعمار. لكـــنهم كـــانوا مصـــممين علـــى مقاومـــة التـــدمير، وكـــان الإيمـــان بالعزيمـــة والإرادة أقـــوى مـــن أي ســـلاح. ورغـــم محـــاولات الجـــيش الفرنســـي لقصـــف وتـــدمير القريـــة، إلا أن المشـــهد الأكثـــر تـــأثيراً كـــان مشـــهد التضـــامن بـــين التونســـيين والجزائـــريين، حيـــث لـــم يتـــوانى

كل طرف عن تقديم الدعم والمساعدة للآخر في ظل هذه الظروف العصيبة.

كانت النساء في تونس تحملن الجرار المملوءة بالماء إلى الجبهات، والأطفال يحملون الرسائل عبر الحدود بين البلدين في تحدٍ صارخ للغطرسة الاستعمارية. في سَاقية سيدي يوسف، كان الجميع يقف صفاً واحداً ضد الظلم، وكانت المقاومة تزداد قوة مع كل ضربة، مع كل قصف، ومع كل محاولة لتدمير هذا الرابط الأخوي بين الشعبين.

وأصبح هذا اليوم درساً في كيف يمكن للشعوب أن تتوحد ضد قوى الظلم، كيف يمكن لأرض صغيرة مثل سَاقية سيدي يوسف أن تحمل في طياتها الكثير من

العز والفخر. هي ليست مجرد قرية على الخريطة، بل هي صورة حيّة من صور النضال المشترك، شاهد على الصداقة بين الشعبين، ومدرسة في التضحية والفداء.

ما زال صوت الصواريخ يرن في الأذهان، لكن أقوى من هذا الصوت كان صدى التآزر. كانت سَاقية سيدي يوسف أكثر من مجرد معركة عسكرية، كانت معركة بين الحق والباطل، بين الشجاعة والخوف، وبين الشعوب المستعمَرة والأخرى التي تناضل من أجل الحرية. وعلى الرغم من الجراح والألم الذي خلفته تلك الأيام، إلا أن سَاقية سيدي

يوســـف تبقـــى حيـــة فـــي الـــذاكرة، عنوانـــاً للتضامن والبطولة التي تتجاوز الحدود.

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

الفصل الاول

الخاطرة الاولى

تحمـــل أقصوصـــتنا حبـــران تـــآخى لإجـــلال كـــرم الأجـــداد المناضـــلين و إحيـــاء الـــذكرى الحربيـــة التـــي تعمّقـــت وراثيـــا بـــين تـــونس و الجزائر جيلا وراء جيل...

بعـــد تـــوالي الحركـــة الوطنيـــة التونســـية والمجابهـــات التحريريـــة القوميـــة بـــين التونســـيين ضـــد العـــدو الغربـــي المســـتعمر الفرنســـي ومنـــذ إنتصـــاب بمـــا يســـمى بالحمايـــة الوطنيـــة الفرنســـية فـــي 1881 والـــذي إســـتمر مـــدادا لخمـــس عقـــود متتاليـــة لدولـــة الجزائـــر المجـــاورة، وبعـــد إســـتقلال تـــونس فـــي 20 مـــارس 1956 صُـــعّد فـــي كـــبح الـــرّادع وقطـــع خـــيط الاســـتعمار المهلـــك والمضـــني الـــذي إقتســـر علـــى تخويـــف

الشـــعب و الرعيـــة وتكبيـــل هواجســـهم مـــن التحـــرر و الانفـــلات باســـتخدام شـــتّى أنـــواع القمـــع الوحشـــي و التـــي كانـــت سياســـة جزريـــة أطاحـــت بعـــدد يكـــاد يكـــون لا نهـــائي مـــن الشـــهداء مـــن المناضـــلين و العســـكريين و عامـــة الشـــعب مـــن رجـــال و نســـاء و أطفـــال وصـــولا للرضّـــع، و حينهـــا لـــم يقـــف الاســـتبداد و لكنـــه تغلغـــل فـــي قلـــوب الـــوطنيين الأحـــرار فصـــار كحمـــإ ثـــائر انســـلخ بـــه كـــل مـــن نـــدّد بطعـــم الحريـــة و الانعتـــاق مـــن ظلالـــة الجـــرم المشـــهود عليـــه لكـــل مـــن الشـــعبين التونســـي و الجزائـــري فـــي حادثـــة ســـاقية ســـيدي يوســـف التـــي أدمـــت قلوبـــا بكـــت قهـــرا، بكـــت دمـــا حـــين ولّـــى مجـــرى هـــذه الســـاقية أحمـــرا يولـــول

لحمل خبر شهد عليه الراحلون من شباب إلى أطفال و شيوخ في 8 فيفري من عام 1958. كان هجوما جويّا مباغتا على قرية ساقية سيدي يوسف عقابا للتونسيين لدعمهم للمقاومة الجزائرية كان وراءها أسباب عديدة حملت إثرها نتائج عديدة أكثر بأكثر...

الخاطرة الثانية

في لحظات التاريخ التي يختلط فيها الدم بالتراب و تجتمع التاريخ مع الجغرافيا، وتذوب فيها الحدود بين الدول والشعوب، هناك أحداث تبقى خالدة في الذاكرة الجماعية، تروي قصصًا من الصمود والتضحية. وبين هذه الأحداث، تبرز ساقية سيدي يوسف، تلك القرية التي كانت شاهدة على واحدة من أعظم ملاحم الوحدة بين الشعبين التونسي والجزائري ضد الاستعمار الفرنسي. إنها قصة تنبض بروح المقاومة، وتُعبّر عن التضحية الكبيرة التي قدمها هؤلاء الأبطال من أجل الحرية والكرامة.

كان ذلك اليوم، 8 فبراير 1958، يومًا مشؤومًا في تاريخ المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي. ساقية سيدي يوسف، تلك القرية التونسية الصغيرة التي تقع على الحدود مع الجزائر، كانت تمثل نقطة التقاء بين شقاء الشعبين التونسي والجزائري في مقاومتهما للغزو الفرنسي. كان لهذه القرية خصوصية كبيرة، فقد كانت مركزًا هامًا للثوار، الذين ينقلون الدعم والتمويل من الجزائر إلى تونس، ويجمعون قوتهم لمواصلة نضالهم ضد فرنسا.

في ذلك اليوم المظلم، كانت الطائرات الفرنسية قد اجتاحت سماء ساقية سيدي يوسف، فاستهدفت المدينة بحمم نارية

دمـــرت المنـــازل، وأهلكـــت البشـــر والحجـــر. لكـــن تلـــك الغـــارة الجويـــة، التـــي كانـــت تهـــدف إلـــى تـــدمير الـــروح الثوريـــة، لـــم تكـــن لـــتُحطِّم عزيمـــة أهـــل الســـاقية. بـــل علـــى العكـــس، أكـــدت لهـــم أن التضـــحية فـــي ســـبيل الـــوطن لا تقتصـــر علـــى حـــرب واحـــدة، بـــل هـــي حرب مستمرة تتجاوز الأوقات والحدود.

كـــان التونســـيون والجزائريـــون فـــي هـــذه المنطقـــة يشـــتركون فـــي معركـــة واحـــدة ضـــد عـــدو واحـــد، وكـــانوا يـــدركون أن لا فـــرق بيـــنهم، ولا فـــرق بـــين أرض تونســـية أو جزائريـــة طالمـــا أن العـــدو واحـــد. فـــي تلـــك اللحظـــات العصـــيبة، كانـــت الحـــدود السياســـية التـــي رســـمتها فرنســـا تفقـــد معناهـــا، ويخـــتلط فيهـــا دمـــاء الشـــهداء مـــن

البلـــدين. فكانـــت ســـاقية ســـيدي يوســـف، بجراحهـــا وآلامهـــا، رمـــزًا لهـــذا التعـــاون والتضامن بين الشعبين.

أصـــوات الطـــائرات الفرنســـية التـــي مـــلأت الســـماء، لـــم تكـــن ســـوى دلـــيلاً علـــى مـــدى إصـــرار الاســـتعمار علـــى تـــدمير كـــل شـــيء، لكـــن رغـــم ذلـــك، كانـــت قلـــوب التونســـيين والجزائـــريين تـــردد لحـــن المقاومـــة الـــذي لا يتوقـــف. كـــان القصـــف والحـــرب يزرعـــان الألـــم فـــي كـــل زاويـــة، لكـــن فـــي نفـــس الوقـــت كانـــا ينبتـــان الأمـــل فـــي قلـــب الأرض. كـــان أبنـــاء الجزائـــر وأشـــقاؤهم التونســـيون يرفضـــون الاستســـلام، ويصـــمدون بكـــل مـــا فـــيهم مـــن عزيمـــة وإيمـــان بـــأن الحريـــة آتيـــة لا محالة، مهما كانت التضحيات.

لم تكن ساقية سيدي يوسف مجرد مكان يتعرض للقصف، بل كانت رمزًا للمقاومة المشتركة، ودليلًا على قوة الإرادة التي لا يمكن أن يوقفها قصف ولا طائرات. كانت لحظة التاريخ التي تجمع بين الشعبين، التونسي والجزائري، في خندق واحد، يدافعون عن وطن واحد. وقد تجسد هذا التضامن بأبهى صورة في المقاومة المستمرة ضد الاحتلال الفرنسي، التي كانت تُمثل فيها الأراضي الحدودية مسرحًا لعديد العمليات المشتركة التي استهدفت القوات الفرنسية في كل من تونس والجزائر.

اليـــوم، عنـــدما ننظـــر إلـــى ذكـــرى تلـــك الأحـــداث، نـــرى أن ســـاقية ســـيدي يوســـف قـــد تحولـــت إلـــى رمـــز للكرامـــة والشـــجاعة. فقـــد أثبـــت الشـــعبان التونســـي والجزائـــري أن معركـــة الحريـــة لا تنتهـــي بالحـــدود الجغرافيـــة، بـــل تبـــدأ فـــي القلـــب، وتســـتمر فـــي الكفـــاح الجمـــاعي. إن شـــهداء تلـــك الأيـــام هـــم الـــذين بنـــوا جســـرًا بـــين الأمـــم، جسرًا من التضحية والنضال المشترك.

وهـــا نحـــن اليـــوم، بعـــد عقـــود مـــن الـــزمن، نتـــذكر أولئـــك الـــذين لـــم يعرفـــوا حـــدودًا إلا حـــدود الحريـــة. إنهـــم مـــن علمونـــا أن كرامـــة الأمـــة لا تقـــاس بـــالزمن، بـــل بـــالمواقف البطوليـــة التـــي يكتبهـــا الشـــعب بالـــدماء والأوجـــاع. إن ســـاقية ســـيدي يوســـف

ستظل خالدة في ذاكرة الأمة العربية، تشهد على قصة من أروع قصص الوحدة بين شعبين جمعتهما أرض واحدة، وألم واحد، وطموح واحد.

لا ننسى أولئك الذين جادوا بأرواحهم فداءً للوطن، من الجزائريين والتونسيين، فهم الأبطال الذين زرعوا فينا حب الوطن، وجعلوا من ساقية سيدي يوسف ساحة للشرف والمجد، يمر عبرها تاريخ حافل بالتضحية والصمود.

الفصل الثاني

الخاطرة الاولى

ساقية سيدي يوسف سمّيت أساسا بهذا الاسم حيث اقترن اسمها بالسّاقية اي "مجرى الماء" لواقعة على الحدود الشمالية الغربية التونسية والجزائرية واقترن أيضا بوليّها الصّالح "سيدي يوسف"

بعدما قدّت شرارة ثورة التحرير الجزائرية في الأول من نوفمبر الموافق لسنة 1954 ضد المستعمر بقيادة من جبهة التحرير الوطنية و هذا توالى مدادا لسنة 1957 خصوصا بعد انسحاب من من حلف الناتو بعد امداد تونس بذخيرة من الأسلحة من قبل القواة الأمريكية و هذا ما أظلّ شراسة

الفرنسيين و زاد من عمقها بعد التفاهم رهانيّا على مصير الأسلحة التي ستكون ليس بالبعيد بيد الجزائريين البسلاء المتواجدين على تراب الجمهورية التونسية و شكّلت المناطق الحدودية الجبلية للشمال الغربي التونسي ملاذا هامّا للسكان الجزائريين الذين بدورهم إندمجوا مع عامّة التونسيين خاصّة في قرية سيدي يوسف هروبا من القواة الفرنسية التي لم تستمد أساسا لفرض سيطرتها على المناطق الجبلية الواعرة هناك، و بعد أخذ مسار التحرير و الاستشهاد في سبيل الوطن لم يدم طويلا إستقرار الجزائريين في المخيمات التي أعدّتها البلاد التونسية على مشارف

القريـــــة والتـــــي كانـــــت بـــــدورها تـــــأوي عـــــائلات المقـــــاومين الجزائـــــريين و تكـــــوّن مركـــز عنايـــة طبّـــي للجرحـــى مـــن العمليـــات العســـــكرية ضـــــدّ المســـــتعمر الغاشـــــم و إعتبرتهـــا فرنســـا قاعـــدة عســـكرية خلفيـــة لجبهـــــة التحريـــــر الجزائـــــري و هنـــــا بـــــدأ الضـــغط علـــى تـــونس يأخـــذ مســـارا منعرجـــا ســـيكون موجعـــا و مـــدمّرا لكـــلّ مـــن الطـــرفين التونســـي و الجزائـــري. و طبعـــا علـــى رغـــم إســـتقلال الـــبلاد التونســـية حـــديثا إلّا أنّ الضـــغط الفرنســـي عليهـــا لـــم يجـــد لنفســـه طرفـــة عـــين لتثقيـــل كاهلهـــا و إعيـــاء مواطنيهـــا خاصّـــة بعـــد حرصـــها الشـــديد علـــى شـــدّ الأغـــلال وقبضـــها علـــى أعنـــاق الجزائـــريين لأنّ صـــوت الاســـتقلال هنـــاك

لايـــزال غيـــر معلنـــا عنـــه. و بعـــد أربـــع سـنوات مـــن الترصّـــد و الانســـلال داخـــل و خـــارج تـــونس و الجزائـــر للإطاحـــة بـــروح التوافـــق الجامعـــة بيـــنهم الصّـــارخة بصـــوت الحريّـــة ليـــتمّ تنفيـــذ مخطّطهـــا الشـــيّن و الهجـــوم المباغـــت لقريـــة ســـاقية ســـيدي يوســـف بقصـــف جـــوّي، مـــدوّي لمســـامع الحاضـــرين و الغـــائبين عقابـــا للتونســـيين لـــدعمهم للثـــورة الجزائريـــة و هـــذا بالتأكيـــد كـــان يحمـــل غايـــات عـــدّة لعـــلّ اهمّهـــا تـــرك الألـــم و حـــرّ الفقـــدان و بأنّـــه لا يوجـــد منـــافس واحـــد لفرنســـا الظالمـــة، و قبـــل هـــذا طبعـــا بـــدأت بـــاطلاق ضـــرباتها التمهيديّـــة و كـــان أوّل هجـــوم تتعـــرّض لـــه الســـاقية فـــي الاول و الثـــاني مـــن أكتـــوبر 1957 ثـــمّ

هجـــوم مـــوالي فـــي أوائـــل ســـنة 1958 تعرّضـــت فيـــه طـــائرة فرنســـية لطلـــق نـــاري مـــن قـــوات جـــيش التحريـــر الـــوطني. و يكمـــل التنفيـــذ مســـاره بعـــد اختيـــار يـــوم الســـوق الأســـبوعية بالقريـــة، 8 فيفـــري الـــذي كـــان يوافـــق حـــدثا تاريخيّـــا راســـخا لليـــوم فـــي الـــذاكرة الوطنيـــة التونســـية و الجزائريـــة بعـــد جملـــة هـــذه الأحـــداث المؤلمـــة الثـــائرة الكاســـرة لـــبطش الفرنســـيين و ماكـــان يطلـــق عليـــه بنعـــوت عديـــدة مـــن قبـــل التونســـيين مثـــل"البرّاني" و "الجـــرذ الرّومـــي" و نعـــوت مذلّـــة أخـــرى. و لكـــن هـــذا الأخيـــر كـــان قـــد تـــرك مخلّفـــات جســـيمة بعـــد هـــذا القصـــف و الـــذي

كـــان فـــي الصـــباح علـــى حـــدود ســـاعة كاملـــة من الرّعب و الفزع...

الخاطرة الثانية

في صبيحة 8 فيفري من عام 1958، كانت الرياح تعصف بالأشجار، وعرفت السماء كأنها على وشك أن تنفجر. كان الفجر قد نفض غبار الليل عن الوجوه، وإذا بالأرض التونسية تشهد حدثًا تاريخيًا سيبقى عالقًا في ذاكرة الأحرار. كانت ساقية سيدي يوسف، تلك القرية التونسية الصغيرة التي تقع في أقصى شمال البلاد، شاهدة على قسوة الاحتلال الفرنسي وقوة المقاومة الجزائرية، التي ما زالت تسطر بطولات لا تمحى من الذاكرة الشعبية.

كانت ساقية سيدي يوسف مركزًا للمجاهدين الجزائريين الذين كانوا

يتخذون من هذه المنطقة نقطة انطلاق للعمليات الثورية ضد الاستعمار الفرنسي. ففي تلك اللحظات، كان المجاهدون الجزائريون يتسللون من حدود الجزائر إلى تونس للالتقاء مع رفاقهم في الداخل، ليدبروا خطة جديدة تضاف إلى سلسلة من الهجمات التي جعلت المستعمر يعيش تحت وطأة الخوف والمقاومة.

ولكن، ما لم يكن في حسبان المجاهدين، هو أن قوات الاحتلال الفرنسي كانت تراقب تلك الحدود بكل حذر. في فجر يوم 8 فيفري، اجتاحت الطائرات الفرنسية السماء كما لو أنها تريد أن تلتهم الأرض من تحته، ليبدأ الهجوم

المدمر على ساقية سيدي يوسف، حيث سقطت القنابل على القرية في هجوم همجي لم يكن له مثيل. كانت الطائرات تلوح في السماء، تحمل الموت والدمار، بينما كان السكان والمجاهدون يختبئون في الأنفاق والمخابئ الصغيرة التي حفروها بأنفسهم في قلب الأرض.

لكن رغم دوي الانفجارات والدماء التي ملأت الشوارع، بقيت الأرواح الجزائرية ثابتة كصخور الجبال. كانت النساء والأطفال يركضون في الشوارع هربًا من الموت، بينما كان المجاهدون يحاولون التصدي للعدو. ورغم أن قنابل العدو كانت تسقط كالريح العاتية، إلا أن صمود الناس لم ينكسر.

يـــوم 8 فيفـــري كـــان يومًـــا مؤلمًـــا، ولكنـــه كـــان يومًـــا تاريخيًـــا أيضًـــا. فـــي تلـــك اللحظـــة، علـــم الفرنســـيون أن ســـاقية ســـيدي يوســـف كانـــت أكثـــر مـــن مجـــرد نقطـــة علـــى الخريطـــة؛ كانـــت رمـــزًا للصـــمود والتضـــحية، وكـــان صـــوت الانفجـــارات فـــي الســـماء يـــروي قصصًـــا مـــن التضـــحيات لا يمكن أن تندثر.

وعلـــى الـــرغم مـــن الهجـــوم الوحشـــي الـــذي شـــنته الطـــائرات الفرنســـية علـــى القريـــة، فـــإن ســـاقية ســـيدي يوســـف لـــم تكـــن مجـــرد مكـــان عـــابر فـــي التـــاريخ، بـــل كانـــت بدايـــة لمرحلـــة جديـــدة فـــي المقاومـــة الجزائريـــة. كانـــت كمـــا لـــو أنهـــا تلـــك الشـــعلة التـــي أضـــاءت طريـــق التحريـــر. كانـــت تلـــك

اللحظات تتويجًا لسنوات من المقاومة التي جمعت بين أبناء الجزائر وتونس، فكان النضال بين شعبين واحد ضد الاستعمار الغاشم.

وبعد أن هدأت الغارات، وقف المجاهدون بين أنقاض القرية، لم يلتفتوا إلى الدمار الذي حل بهم، بل كانوا يرفعون رؤوسهم عاليا، وعزيمتهم تتجدد، وأرواحهم تتحد في مسيرة من الأمل والتضحية. كانت ساقية سيدي يوسف، بالرغم من الألم، تزداد مجدًا، وصوت قنابلها أصبح أكثر من مجرد دوي: أصبح صرخةً في وجه المستعمر، إشارة إلى أن الأرض لا تُسَلم

إلا لأهلهـــــا، وأن الحريـــــة لا تتحقـــــق إلا بالتضحية.

وفـــي تلـــك اللحظـــات الحزينـــة والمضـــيئة فـــي آن، تبقـــى ســـاقية ســـيدي يوســـف أكثـــر مـــن مجـــرد تـــاريخ أو ذكـــرى. هـــي درس فـــي الكرامـــة، فـــي الصـــمود، وفـــي النضـــال الـــذي لا يلين.

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

الفصل الثالث

الخاطرة الاولى

حيثمـــا كـــان التكـــاتف يبنـــي حصـــنا و لا يثنـــي أيـــادٍ تحمـــل دروعـــا حمـــت مـــن هـــو ورائهـــا قبـــل أن تحمـــي أفئـــدة قلوبهـــا مـــن ســـهام أقلعـــت و صـــوّرت ريـــاح عاتيـــة مـــن وراء قـــدومها، عنـــدما إختيـــر قـــديما الـــنّقش علـــى الصّـــخر و الكتابـــة علـــى الجـــدران للتعبيـــر عـــن وجـــود كيـــان بشـــري ، لكـــن مـــا إختـــاره شـــعبا شـــمال إفريقيـــا كـــان مغـــايرا لهـــذا أســـمى و اعلـــى، عنـــدما بكـــت أم الشـــهيد و أب الشّـــهم الصّـــنديد و أخـــت المجـــلّ اللّديـــد، عنـــدما إختلطـــت تـــراب تـــونس و شـــقيقتها الجزائـــر بـــدم شـــهماء علّقـــوا مصـــيرهم بســـكّة الحريـــة والعدالـــة علـــى رغـــم القهـــر و الفضـــاعة التـــي وارت القلـــوب مـــرارا

مـــرارا، تلـــك الســـاقية عنـــدما إخـــتلط ماؤهـــا بـــدم أبريـــاء شـــهدوا علـــى ظلـــم و جـــزر، فـــي صـــبيحة يـــوم كـــان يـــروي قصـــة كفـــاح لأنـــاس اســـتغلت ســـذاجتهم و طبيـــة قلـــوبهم مـــا لـــم تلـــحّ علـــيهم الرّضـــخ لغيـــر هـــو متعـــال علـــيهم يفـــرّق، يقتـــل، يقصـــي، يعتقـــل و يقتـــل أيضـــا. فـــي تلـــك المنطقـــة الصـــغيرة تكاتفـــا و تضـــامنا شـــعبين شـــقيقين ضـــمّهما دم و نضـــال واحـــد و علـــى آفـــاق التـــآلف صـــحّ المعنـــى و اســـتقام لســـمات معنويـــة رســـمت تاريخـــا جليّـــا لـــم يشـــهد عليـــه فقـــط التونســـيون و الجزائريـــون بـــل شـــهد عليـــه عـــرق عربـــي كامـــل، تكاملـــت الوحـــدة ســـرّاءا و ضـــرّاءا و ســـتتكامل و هـــي حقـــا مكتملة.

الخاطرة الثانية

في تاريخ الشعوب، هناك لحظات لا تُنسى، أحداث تتجاوز حدود الزمان والمكان، لتصبح رمزًا لوحدة الدم والهدف. في الثامن من فبراير 1958، في بلدة ساقية سيدي يوسف التونسية، حيث الطمأنينة التامة، كان الليل يهمس بجماله في السماء الصافية، لم يكن أحد يدري أن الرياح ستجلب نذرًا جديدًا من التضحية والصمود. كان ذلك اليوم بداية لفصل جديد في تاريخ العلاقة بين الجزائر وتونس، فصل تتشابك فيه أرواح الأبطال وتتعانق فيه مصائر الشعوب.

في تلك البلدة الهادئة، تجسدت أسمى معاني التضامن بين شعبين شقيقين، كانا يعبران معًا من دروب الاضطهاد والاحتلال إلى آفاق الحرية. في تلك اللحظات، كانت ساقية سيدي يوسف تمثل أملًا كبيرًا للجزائريين الذين كانوا يواصلون نضالهم ضد الاحتلال الفرنسي. ومع تزايد الضغط على تونس من قبل الاستعمار الفرنسي، لم تكن هناك حدود بين ما يربط الشعبين. كانت الأيدي تتصافح، والقلوب تتكاتف، وكلما ازداد قسوة الواقع على أحدهما، كان الآخر يزداد تضامنًا في القتال من أجل الحق والحرية.

إن ما وقع في ساقية سيدي يوسف لم يكن مجرد هجوم على قرية صغيرة، بل كان معركة ذا طابع إنساني عميق. عندما قصفت القوات الفرنسية البلدة بالقنابل، كان من حولها شبح الموت يلاحق الجميع. لكن هذا الهجوم الجائر من قبل العدو لم يكن كافيًا لتمزيق العلاقات الأخوية بين الشعبين. بل بالعكس، كان بمثابة شرارة أشعلت جذوة التضامن والمقاومة المشتركة.

إن ما حدث في ذلك اليوم زرع في نفوس الجزائريين والتونسيين شعورًا عميقًا بأنهم ليسوا وحدهم في المعركة، وأنهم في خندق واحد ضد قوى الشر والظلم. أصبحت ساقية سيدي يوسف

رمـــزًا للوفـــاء، لـــيس فقـــط فـــي تـــاريخ الجزائـــر وتـــونس، بـــل فـــي تـــاريخ العـــرب جميعًـــا. كانـــت الرســـالة واضـــحة: أن أعـــداء الحريـــة لا يفرقـــون بـــين الشـــعوب، لكـــن الشـــعوب الحـــرة لا تفـــرق بينهـــا الحـــدود. وعليـــه، كانـــت الوحـــدة الوطنيـــة والتعـــاون بـــين الشـــعبين بمثابـــة درع قـــوي فـــي مواجهة محاولات الاستعمار.

ومـــع مـــرور الوقـــت، تعـــززت هـــذه الـــروابط بـــين الجزائـــر وتـــونس، وأصـــبح الشـــعبان لا يفترقـــان فـــي مواجهاتهمـــا ضـــد الاســـتعمار. كانـــت ســـاقية ســـيدي يوســـف، علـــى مـــر الســـنوات، مكانًـــا يـــذكره التـــاريخ بكـــل فخـــر، لأنهـــا لـــم تكـــن مجـــرد مكـــان، بـــل كانـــت

محطة مفصلية في بناء علاقات صداقة وتعاون بين بلدين شقيقين.

لقد علمتنا تلك الحادثة، أن النضال من أجل الحرية لا يتوقف عند الحدود الجغرافية، وأن الشعوب التي تواجه نفس العدو، لها نفس الهموم، ولهذا يجب أن تقف معًا، تبني الأمل، وتتصدى للتحديات مهما كانت.

وتظل ساقية سيدي يوسف، بلدة صغيرة في تونس، ولكنها أكبر من أي حدود أو قيود، فهي تجسد الروح الحقيقية للتضامن العربي، وتعكس عمق العلاقات بين الجزائر وتونس، العلاقات التي تأكدت في اللحظات العصيبة، وازدهرت في ما بعد، لتصبح نموذجًا للتعاون

والوحدة بين الدول العربية في مواجهة التحديات التي تواجهها.

وفي ذكرى تلك الحادثة، يستذكر الجزائريون والتونسيون معًا بطولات شعبين لا يقهران، عازمين على الحفاظ على هذا الترابط الأخوي، وعلى العمل سويا لبناء مستقبل أفضل.

الفصل الرابع

الخاطرة الاولى

هي لحظات مرّت طوالا على العديد الذين هم من قبلنا، أجدادنا الذين لطالما مشوا أحرارا شامخين على وقائع واقع مرير متعب و مرهق مستنزف لما كان يملكونه من قوّة و عزيمة إلا أن رباطة الجأش تنتصر رغم الصرخات الموجعة المكتومة بيد غدر سفكت دماءا و لم تكفي سوى بهذا، فالمقاومة إستمرت ضد الاستعمار و استكملت مسارها لسنتين أمامها لافتكاك الاستقلال و إقتلاعه غصبا من جوف فرنسا فقد تهيأت الظروف لصالح الجزائريين و بالمساعدة من التونسيين للظفر باستقلال حرياتهم، ضعفت فرنسا بعد

احـــتلال ألمانيـــا لهـــا و ولّـــى هـــذا الظـــالم كســـيرا فـــي عـــين مســـتعمراته لكنّـــه كثـــف جهـــود قمعـــه و صـــيته أكيـــف تســـكت صـــريخ قلـــب جـــريح؟ و كيـــف لنشـــأت علاقـــة ودّ بـــين البـــريء و جـــلاّده، وقفنـــا طـــوالا و اكتمـــل نورنـــا ضـــياءا بتهليـــل الزغاريـــت المنبعثـــة مـــن أثغـــار التونســـيات و الجزائريـــات الأحـــرار لاعـــلان النّصـــر و أنـــه لا وجـــود لصـــوت فـــوق صـــوت الحـــق، و الاســـتحقاق و أصـــالة التـــراث الـــذي لـــم يرمـــق لـــه التلـــون بعـــرق غربـــي، هـــذا كـــان لفرنســـا الظالمـــة كســـرا و انســـحابا ثقـــيلا بغيضـــا لـــه فـــي آخـــر نوايـــاه الانســـحاب شـــكليا و تـــرك نفوذهـــا مـــن بعيـــد و بهـــذا تســـتمر المقاومـــة علـــى مـــن يعـــادي أراضـــي

الـــوطن، أراض عاشـــت حـــرة و كانـــت و لازالـــت حـــرّة، تـــونس و الجزائـــر قصـــة فخـــر و اعتـــزاز لمـــن لا عـــزّ لـــه نحـــن لـــم نبنـــي الشـــقاق بـــل كنّـــا شـــقيقان لـــم تكـــن للمســـاحة الترابيـــة لنـــا عقبـــة نحـــن ظفرنـــا و الظفـــر حليفنا..

الخاطرة الثانية

في أحداث ساقية سيدي يوسف، كان رد فعل فرنسا على الاتحاد بين الجزائر وتونس مليئًا بالتوتر والقلق. فقد كانت فرنسا ترى في هذا التحالف الذي نشأ بين البلدين تهديدًا مباشرًا لمصالحها الاستعمارية في شمال إفريقيا. هدد الاتحاد بتعزيز التحركات المناهضة للاستعمار في المنطقة ورفع معنويات شعوبها في مواجهة الهيمنة الفرنسية.

في تلك اللحظة، كانت فرنسا ترى أن هذا التعاون بين الجزائر وتونس قد يفتح أبوابًا جديدة لاستقلال الشعبين، ويشعل المزيد من نيران المقاومة في المستعمرات الأخرى. كانت الصحف

الفرنسية تتحدث عن هذه الأحداث بحذر، محذرة من عواقب هذا الاتحاد الذي اعتبرته نواة لتعاون أوسع قد يشمل دولًا أخرى في المنطقة

أما في الرأي العام الفرنسي، فقد تراوحت ردود الأفعال بين الخوف من تطور الأمور إلى انتفاضة عارمة، وبين التحليل الذي حاول التقليل من أهمية هذه التحركات، معتقدًا أنها مجرد ردة فعل عابرة. ومع ذلك، كانت الأحداث تؤكد أن الشعبين الجزائري والتونسي، رغم محاولات قمعهم، كانا يزدادان إصرارًا على نيل استقلالهما.

تلك اللحظات كانت تعبيرًا عن الوحدة التي تتجاوز الحدود السياسية، وتظهر

بوضـــوح كيـــف أن الشـــعوب لا يمكنهـــا أن تُقهـــر عنـــدما تتكـــاتف وتتعـــاون مـــن أجـــل الحرية والكرامة.

رسالة الى الشعب التونسي

إلى أهل تونس الأعزاء،

من الجزائر، أكتب لكم هذه الكلمات التي تخرج من القلب، معبرة عن حبٍ عميق واعتزازٍ لا حدود له. أنتم، يا أبناء تونس، الأحرار، نبع من الطيبة والكرم الذي لا يضاهيه شيء. في كل زاوية من أرضكم، تلمح عيون الأمل، وتسمع أصوات الحرية التي كانت دائمًا مصدر إلهام لنا. إنكم شعب يملك تاريخًا عظيمًا، وذكاءً فطريًا يميزكم عن سائر الشعوب.

أنتم تتميزون بثقافتكم الغنية التي هي مزيج من التأثيرات العربية، الأمازيغية، والمتوسطية، مما جعلكم مهدًا للتنوع والابداع. في عيونكم تتجسد الحكايات،

وفـــي أفـــواهكم تتـــردد قصـــائد الحريـــة والكرامـــة. حـــين نتحـــدث عـــن تـــونس، لا يســـعنا إلا أن نفكـــر فـــي ثـــورتكم التـــي ألهمـــت العـــالم بأســـره، وفـــي قـــوتكم التـــي أظهـــرت للجميـــع أن الشـــعوب التـــي تصـــمد وتؤمن بحقوقها لا يوقفها شيء.

رســـالتي إلـــيكم هـــي أن تبقـــوا كمـــا أنـــتم، منـــارة للأمـــل والكرامـــة فـــي هـــذا العـــالم المتغيـــر. لا تلتفتـــوا للظـــروف، فـــإن قـــوة تـــونس ليســـت فقـــط فـــي تاريخهـــا، بـــل فـــي شـــعبها، فـــي قـــدرتكم علـــى التكيـــف والمضـــي قـــدمًا رغـــم كـــل التحـــديات. فكمـــا أنكـــم دائمـــاً تبرهنـــون علـــى العظمـــة والإنســـانية، نتمنـــى لكـــم الاســـتمرار فـــي الريـــادة وفـــي تحقيـــق

أحلامكـــم، كونـــوا فخـــورين بأنفســـكم كمـــا نفخر نحن دائمًا بكم.

رسالة الى الشعب الجزائري

إلـــى أهـــل الجزائـــر الطيبـــين، مـــن تـــونس الشـــقيقة، أبعـــث إلـــيكم كلمـــات قلبيـــة، مليئـــة بالأمـــل والمحبـــة، كمـــا هـــو الحـــال بـــين شـــعبين عاشـــا علـــى مـــر العصـــور فـــي الأخوة والوفاء.

يـــا أهـــل الجزائـــر، أنـــتم أســـطورة فـــي الصـــمود، رمـــز للحريـــة والكرامـــة، عـــانقتم الشـــمس وأصـــرّيتُم أن تقفـــوا أمـــام الظلـــم وتكتبـــوا تاريخًـــا جديـــدًا بأيـــدٍ قويـــة وعزيمـــة لا تلـــين. لطالمـــا كنـــتم مصـــدر إلهـــام لنـــا فـــي تونس وفي كل بلاد العرب.

اليـــوم، ونحـــن نعـــيش معًـــا فـــي عـــالم ملـــيء بالتحـــديات، تظـــل قوتنـــا فـــي وحـــدتنا. مـــن تـــونس إلـــى الجزائـــر، نحـــن إخـــوة فـــي

الماضي، والحاضر والمستقبل. ما يجمعنا من روابط تاريخية، ثقافية، وإنسانية، يجعلنا نتطلع لمستقبل مشترك، قوي ومزدهر.

رسالتي لكم، أهل الجزائر الأعزاء، هي أنكم في قلوبنا، وتوجهاتنا معكم في كل خطوة. لنبقَ متحدين في مواجهة التحديات، ولنثبت للعالم أجمع أن شعوبنا لا تنكسر. هناك المزيد من الأمل في كل زاوية من أرضنا، وبالعمل معًا، لا حدود لما يمكننا تحقيقه.

دمتم في عز وكرامة، ودامت الجزائر حرة أبية، وتونس في محبة وشموخ.

الخاتمة

وفي ختام هذه السطور التي عشنا خلالها لحظاتٍ من التاريخ الذي لا يموت، نسترجع ذكرى ساقية سيدي يوسف كنبراسٍ يضيء لنا دروب الأمل والعزيمة. تلك الحكاية التي سجلت بأحرف من ذهب بطولة الشجعان الذين اجتمعوا من أجل هدف واحد: الدفاع عن الأرض والكرامة. قد تكون الأحداث قد مرّت، ولكن دروسها ما زالت تنبض في قلوبنا، تذكرنا بأن الوحدة، الإيمان بالقضية، والصدق في العمل هي مفاتيح الانتصار الحقيقي.

لتبقى ساقية سيدي يوسف، رمزًا للوفاء، ودرسًا للأجيال القادمة بأن

التـــاريخ لا يُنســـى، وأن شـــجاعة الشـــعوب لا تُقهـــر مهمـــا تقلبـــت الأزمـــان. وإذ نختـــتم هـــذه الخـــواطر، فإننـــا نؤكـــد أن دمـــاء شـــهدائنا ســـتظل تـــروي أرضـــنا، وأن أفعـــالهم ســـتظل خالـــدة فـــي ذاكـــرة الأمـــة، تـــذكرنا دومًـــا بـــأن الأوطـــان تُبنـــى بالـــدماء والتضحيات.